مقدّمات الوحي في شبه الجزيرة العربيّة

سَرِي نُسَيْبَة

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2020

All rights reserved © 2020

مقدّمات الوحي في شبه الجزيرة العربيّة[1]

المؤلّف: **سَرِي نُسَيْبَة** (فلسطين)
المترجم: **بدر الدين مصطفى** (مصر)

1هذه ترجمة للفصل الأول والثاني من:

Sari Nusseibeh, *The Story of Reason in Islam* (Stanford: Stanford University Press, 2017) pp 1 - 17

الصحراء العربية

ليس ثمة شك، أنّ التغييرات التي اجتاحت الجزيرة العربية والمناطق المحيطة بها في القرن السابع الميلادي كانت استثنائية إلى حد كبير، بصرف النظر عن طريقة تقييمنا لتلك التغيرات، حيث انتقل زمام تحديد المسار التاريخي للعالم، من أيدي الإمبراطوريات الرومانية والبيزنطية والساسانية، إلى العالم العربي؛ الذي كان بمثابة الطرف الأضعف من الناحية الحضارية مقارنة بتلك الإمبراطوريات، لكنه استطاع في غضون بضعة عقود الانتقال إلى مركز الصدارة. وقد برز العالم العربي كقوة فكرية عملت على ضخ الدماء من جديد في شرايين تاريخ الحضارة، إلى جانب قوته السياسية التي أصبح عليها. استطاع شعب الصحراء، الذي لا يكاد يمتلك أي موارد كافية تؤهله للقيام بذلك، أن يقدم إسهامات لا تقدر بثمن في التاريخ الفكري عبر مؤلفيه وعلمائه. قد تحولت اللغة التي كانت تتحدثها مجتمعات هامشية إلى لغة مهيمنة؛ وسيط تواصلي يحمل أكثر الأفكار العلمية تقدمًا. كيف حدث هذا التحول؟ وما أثار هذه الثورة الفكرية، التي أفضت إلى بزوغ العقل، والتي أنتجت في النهاية بعضًا من أعظم العقول في تاريخ الفكر والعلم؟

كانت الجزيرة العربية توفّر بيئة طبيعية لمن رأوا المعنى في جلال الطبيعة وفي لا تناهي المكان. في ذلك الامتداد الشاسع، جاب الأنبياء، والشعراء، والرهبان، والنساك، والطوائف الوثنية، والصوفيون البسطاء، للبحث عن ملاذ آمن بعيدًا عن صخب مجتمعاتهم. في هذا المكان، حيث الهدوء والسكينة، كان بوسعهم أن ينصتوا جيدًا إلى نبضات قلب الكون، فيشعروا بعظمته. لقد قدموا إلى الصحراء من أجل ممارسة التأمل. كان المصلون يبحثون عن العزلة فلجأوا إلى الكهوف المتناثرة داخل خبايا الجبال الوعرة. وعلى صوت النغمات الإيقاعية الناعمة للإبل على طول الرمال المتعرجة من هذه التربة الصحراوية، تمكن بعض المسافرين العزل من إبداع بعض القوافي الشعرية التي ستصبح بعد ذلك مكونًا رئيسًا من مكونات التراث الأدبي العربي.

يُدرك المرء، في زمننا الصاخب هذا، كيف تغدو الطبيعة البكر موطنًا مثيرًا للدهشة. ولا يزال هدوء الصحاري الشاسعة واتساعها يضفيان جاذبية خاصة على طبيعة أولئك الذين يعيشون أو يسافرون إلى هناك. ويجب على المرء أن يُعمل خياله كيما يتصور قدر الفتنة الذي استشعره هؤلاء الرحالة في بعض الأحيان، والتي أفضت إلى انهيار الحدود الفاصلة أمام عقله بين الوحدة والاختلاف، المكان والزمان. مثل هذا الانهيار بين الحدود والفئات - بين الأرض والسماء، الحاضر والماضي، الرائي والمرئي، كان بمثابة المداد للكثير من الاستشرافات الفلسفية المبكرة. ينطوي الترابط الأساسي الذي يبدو عليه العالم المحيط بنا، في ظل أوضاع الحياة الحديثة، على ملامح منفصلة ومتكسرة؛ حيث يمكن تقسيم المكان إلى وحدات أقصر

فأقل قصرًا، كما يمكن تقسيم الزمان إلى وحدات أصغر وأقل صغرًا، وحيث تبدو المسافات والثغرات كأنها تذوب (أو تتلاشي) في بعضها البعض. لكن في صحراء تلك العصور الغابرة، حيث الطبيعة على مد البصر، لا بدّ أن تبدو مكونات المشهد على نحو مختلف، بالنسبة إلى كل عابر سبيل، أو شاعر، أو مسافر. هل تمتلك هذه الأشياء، التي تتراءى لهم متناثرة في الليل والنهار، وتبدو ممتدة عبر هذا الكون الفسيح، جوهرًا واحدًا؟! إلى أيّ مدى يكون الوجود الإنساني جزءًا من هذا الوجود الذي لا تحده حدود؟! وكيف يمكن للفرد أن يتأمّل تلك النجوم عبر هذه الرمال الحارقة، ويربط وجودها بالوجود المطلق الذي يحكمها أو يحيط به؟

ومع ذلك، لم تكن تلك الصحاري مهجورة على نحو تام. لم يكن جمالها السحري والمربك حكرًا على قاطنيها فقط، بل كان معروفًا أيضًا لدى بعض القبائل الأخرى التي اتخذت من الترحال سبيلًا لها؛ قبائل من المناطق الصحراوية، على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط، والبحر الأحمر، وفارس، بما تشمله من ثقافات ومعتقدات مختلفة تمتد إلى عصور غابرة. وقد اجتمعت تلك الثقافات المنتمية إلى حضارات مختلفة من خلال الطرق التجارية التي تربط المناطق الساحلية والداخلية عبر ثلاث قارات، حيث تعج الصحارى الواقعة في إفريقيا وآسيا بأصداء عديدة - أصداء تعود إلى الحضارات المصرية والآشورية والنبطية والفينيقية، ومن جهة أخرى الحضارات اليونانية والرومانية والفارسية. وقد شملت هذه المجتمعات في وقت لاحق أصداء أخرى أقدم للانشقاق المسيحي الذي حدث: الصراع المرتبط بأسكندر أريوس (ت 336)، حول ما إذا كان الله والمسيح واحدًا أم اثنين. وفي وقت قريب من القرن السادس، نطقت الصحراء بلسان بعض العابرين والتجار والرهبان، مثل الأسقف الروماني الجزائري القديس أغسطينوس (ت 430)، وعرفت الصحراء العربية هيباتيا (ت 415)، عالمة الرياضيات الإغريقية - المصرية التي قُتلت على يد جماعة مسيحية متطرفة.

يجب على المرء أن يُعمل خياله، ليتصور طبيعة القصص والأفكار التي انتقلت عبر الطرق الداخلية والبحرية، سواء من حضارات البحر المتوسط المحيطة والمستوطنات الاستعمارية في محيط العالم العربي، وكذا من الهند وبلاد فارس والشرق الأقصى. امتدت شرايين التجارة والاتصال عبر التجار من صحاري شمال إفريقيا إلى صحاري آسيا الصغرى. لقد انتقلوا بين المدن الأيونية الخلابة - والعواصم ذات الصبغة الروحية - إلى بلاد ما بين النهرين، حيث تنتشر الكنائس والمعابد لعبادة الشمس والنجوم على الحدود التركية السورية. كما قادت مسارات الجنوب، إلى «القلب» من شبه الجزيرة العربية. بعد ذلك، انطلقوا في الأراضي الخصبة التي كانت تحكمها ملكة سبأ الأسطورية. رحلة يوم واحد عبر البحر الأحمر ستجلب المسافر إلى القرن الأفريقي، مقر إحدى أكثر ممالك العالم القديم، إثيوبيا. يُعتقد الآن، أن الإنسان الحكيم قد ظهر في هذا

الموقع، وعبر لاحقًا إلى شبه الجزيرة العربية وآسيا الصغرى؛ على أي حال، فإن الإمبراطورية العظيمة التي اعتنقت المسيحية بشكل خاص - ورحبت بالمسلمين فيما بعد - كانت هي المزدهرة هنا.

كان شبه الجزيرة العربية يعج بالثروات التاريخية التي كان بعضها معلومًا والآخر مجهولًا. كان هو المكان الذي ارتاده الأنبياء التوراتيون يومًا ما - حيث وجدت المجتمعات اليهودية والمسيحية، وغيرهم من المجتمعات الدينية، مقرًّا لها منذ فترة طويلة. وهنا في مكة، المركز التجاري الرئيس للمنطقة العربية - الذي لا يبعد كثيرًا عن البحر الأحمر ويقع على مقربة من الجبال الصحراوية، حيث سيتلقى الوحي، وُلد النبي محمد (570–632). كانت الرؤى الإلهية الفريدة التي حملها والرسالة التي نقلها تثير أحداثًا غير عادية من شأنها أن تعيد تشكيل تاريخ العالم.

وبنظرة تسترجع الماضي وتستحضره، لا ينبغي أن يبدو ظهور محمّد في هذا الجزء من العالم حدثًا خارقًا للعادة. كان الناس آنذاك - من أتباع العقيدة اليهودية والديانات الأخرى - يلقون السمع لكل ما يقال، وقد تنامى إلي مسامعهم ما يتم تداوله في المراكز التجارية في الصحراء من شائعات حول ظهور وشيك للمسيح. كان ثمة شائعات مماثلة قد نشأت، في هذا الجزء من العالم، ولعدة قرون، بما في ذلك السنوات القريبة من قدوم يسوع. وفي وقت قريب من ذلك الذي أعلن فيه محمد عن رسالته، كان ثمة شخصان أو ثلاثة على الأقل قد زعموا أنهم تلقوا المنحة النبوية. وإذا ما استثنينا العديد من الزهّاد والنساك، والأحبار، الذين ينتمون إلى مختلف الطوائف المسيحية، أو أفراد الجاليات اليهودية التي تعيش في أنحاء شبه الجزيرة العربية - كانت الصحراء تعجّ بالطوائف والمجتمعات التي تمثل العديد من الأديان الأخرى والحضارات القديمة؛ لقد قدموا من أماكن بعيدة مثل بلاد فارس وشبه القارة الهندية؛ وكان من بينهم الزرادشتيون، وعبدة القمر والشمس، والبراهمة، والمانويين.

وقد أقامت القبائل العربية الشمالية والجنوبية تحالفات مع الإمبراطوريتين المتنافستين، البيزنطية والساسانية، نظرًا لوقوعها بينهما. لقد كانت البيئة الداخلية العربية، بمثابة أرضٍ تلاقت عليها الثقافات والأفكار والأديان والجماعات الإثنية. كانت الامتدادات الشمالية لشبه الجزيرة العربية تقع في صلب مجالي الإمبراطوريتين المترابطتين. ولم تعمل الإمبراطورية الساسانية على نشر الديانة الزرادشتية فحسب، بل رحبت أيضًا بالآباء المسيحيين النسطوريين، عندما اتخذوا منها مقرًّا تعليميًا لهم. وقد استمر هذا المقر في ممارسة نشاطه داخل مدينة إديسا القديمة (أورفا)، حتى أمر الإمبراطور البيزنطي زينو بإغلاقه في أواخر القرن الخامس. لقد حدث هذا مباشرة بعد قبول الإمبراطور في روما لمطلب سيريل Cyril، رئيس أساقفة الإسكندرية، بإقالة نسطور، رئيس أساقفة القسطنطينية.

في وقت سابق على هذا، بما يقرب من مائتي سنة، واستنادًا إلى تقليد مسيحي يزعم عودته إلى المسيح نفسه، اقترح آريوس أن المسيح ليس هو الله. وقد أصبحت الإسكندرية وأنطاكيا، بعد ذلك، مقرًّا لمدارس الفكر المسيحي المختلفة. تبنت الإسكندرية موقفًا مسيحيًا اتجه بمرور الوقت نحو التشدّد المتزايد، واتخذت موقفًا عدائيًا تجاه الطوائف والثقافات الأخرى (بما في ذلك المجتمعات اليهودية والوثنية). ولم تزل بعد آثار الأيّام العظيمة التي تخص تلك الفترة شاهدة عليها - ربما كانت هيباتيا[1]، الجميلة ذات النهاية المأساوية (350 - 415)، التي أسدلت بوفاتها الستار على التراث العلمي اليوناني، أكبر شاهد عليها. وبشكل عام، لم يتم التسامح مع العلوم «الوثنية» ولا الفكر الحرّ من قبل أساقفة المدينة. وهكذا، بدأ علماء الدين، الباحثون عن الحقيقة أو ممن اعتادوا على الترحال والهجرة، في التنقل؛ حيث رحل عدد كبير منهم إلى أجزاء مختلفة من شبه الجزيرة العربية والمقاطعات الشمالية. وقد عمل نسطور[2] على تطوير وجهة النظر، المرتبطة بآباء الكنيسة في أنطاكيا، التي مفادها أن السيدة مريم كانت والدة المسيح وليس الله، وأنّ ابنها هو نسخة من الكلمة الإلهية. وفي مجلس عُقد في أفسس (431)، حشد كيرلس أنصاره من مصر ومن مناطق أخرى من الإمبراطورية، وتم اتهام مذهب نسطور بالهرطقة.

يتجاوز الصراع الذي دار بين كيرلس ونسطور مجرد كونه صراعًا لاهوتيًا حول ما إذا كان المسيح هو الله أم مجرد إنسان. كان كثير ممن انخرطوا في هذا الجدل، قد أدركوا أن المسألة المهمة هنا تتمثل في الإجابة عن سؤال: إلى أيّ مدى يمكن للبشر أن يتبعوا العقل بمفرده (وإن كان ذلك بتوجيه إلهي). وهنا يمكننا أن نقرأ هزيمة نسطور في المعركة العقائدية بوصفها نهاية لمعركة أيديولوجية معينة. عندما تم إغلاق مدينة إديسا، تجول العلماء والمعارضون المنشقون في بيزنطة شرقًا ولجأوا إلى الأراضي التي كان يحكمها الساسانيون. لقد أسّسوا مركزًا جديدًا في مستوطنة صغيرة تسمى نصيبين (Nisibis) على السهول التي تحدّ سوريا الآن من جهة العراق. انتقلت التقاليد الفكرية لكل من الإسكندرية الوثنية والمسيحية المبكرة

1 فيلسوفة تخصصت في الفلسفة الأفلاطونية المحدثة، وهي تعد أول امرأة في التاريخ يلمع اسمها كعالمة رياضيات، كما لمعت في تدريس الفلسفة وعلم الفلك. لا توجد معلومات مؤكدة عن تاريخ ميلادها، لكن دراسات أجريت مؤخرًا تشير إلى أنها قد ولدت عام 370م بالإسكندرية؛ أي إنها كانت تبلغ 45 عامًا عند وفاتها. يبدو أن هيباتيا كان تعرف باسمين مختلفين أو كان هناك طريقتان لكتابة نفس الاسم، الأولى هيباتيا والثانية هيباشيا. وقد كان هناك آنذاك امرأتان تحملان الاسم ذاته، هيباتيا ابنة ثيون السكندري، وهيباتيا ابنة اريتريوس. كان والد الأولى هو عالم الرياضيات والفلك الشهير ثيوس الذي عاصر ببس الرومي الذي عاش بالإسكندرية خلال فترة حكم الإمبراطور ثيوذوسيوس الأول .وقد اعتبر كُتّاب السيرة الذاتية لثيون، رئيس جامعة الإسكندرية، أنه كان فيلسوفًا. كانت هيباتيا تتبع المدرسة الأفلاطونية المحدثة الفلسفية القديمة، لذا فكانت تتبع النهج الرياضي لأكاديمية أفلاطون في أثينا، التي مثّلها إيودوكيوس الكنيدوسي، تأثرت هيباتيا بفكر أفلوطين الذي عاش في القرن الثالث الميلادي، الذي كان يفضّل الدراسة المنطقية والرياضية بدلاً من المعرفة التجريبية، ويرى أن للقانون أفضلية على الطبيعة. عاشت هيباتيا في مصر الرومانية، وماتت على يد حشد من الغوغاء المسيحيين بعد اتهامها بممارسة السحر والإلحاد والتسبب في اضطرابات دينية. ترى كاثلين وايلدر أن مقتل هيباتيا يعد نهاية للعصر الكلاسيكي القديم، كما لاحظ ستيفن غرينبلات إن مقتلها «أثر بشدة في انحدار الحياة الفكرية السكندرية». المترجم

2 نسطور أو نسطورس: ولد عام 381 م بمدينة مرعش في سوريا وتربى في أنطاكية وهناك ترهّب بدير أيروبيوس، وتتلمذ على يد ثيودوروس المصيصي، اختير بعدما تم تعليمه وبعد دراسته للكتب ليكون شماسًا ثم قسًا في كاتدرائية إنطاكية، واشتهر بفصاحته وقوة عظاته. حاول في البداية إزالة جميع أشكال الهرطقة في الكنيسة، ودرس اليونانية ومبادئ العلوم في مرعش ثم تشبع بمبادئ مدرسة أنطاكية اللاهوتية، لذلك اختاره الإمبراطور ثيوذوسيوس الثاني ليكون بطريركًا على الكرسي للقسطنطينية. لكنه بعد ذلك اختلف بصورة جذرية مع آباء الكنيسة حول فكرة ألوهية المسيح، وقد ترتب على ذلك عزله من منصبه وإعلان مذهبه كفرًا. المترجم.

إلى الأراضي الساسانية، بعيدًا عن الغرب. وفي موقع جغرافي وسياسي أقرب من بلاد فارس، تم تعزيز ما أصبح يعرف بالكنيسة الشرقية وتنشيطها، من خلال الحراك الفكري الذي أحدثته أكاديمية جنديسابور Gundeshapur المعروفة[3] - مما لا شكّ فيه أنها كانت آنذاك بمثابة المقر الرئيس للتعليم العلماني والطبي. في وقت ما ستلعب الإسكندرية، أنطاكيا، إديسا، نصيبين، وجونديشابور أدوارًا محورية في انتقال اليونانية القديمة والعلوم السريانية للحركة الفكرية المستوحاة من رسالة نبي الإسلامي. في القرن العاشر، قيل إن الفيلسوف الشهير الفارابي (توفي 950) أخبر كيف وصلت إليه الفلسفة اليونانية القديمة في بغداد من نصيبين. قامت أجيال من العلماء في الماضي والحاضر بعقد مقارنة بينه وبين يوحنا بن حيلان، وهو رجل دين نسطوري درس في إطاره أعمال أرسطو (بما في ذلك الشروحات اللاحقة).

لكن كل ذلك سيأتي لاحقًا، من الناحية الزمنية. في هذا السياق، ينبغي التأكيد، أولًا، أن الظروف الخاصة بالتراث الفكري الثري كانت مواتية لاختراق شبه الجزيرة العربية. منذ فترة طويلة كانت مكة مركزًا تجاريًا رئيسًا على الطرق التي تربط بين آسيا وأفريقيا، والبحر الأبيض المتوسط، وقد ظهرت كمركز للحياة السياسية والثقافية والدينية للقبائل والمجتمعات في جميع أنحاء المنطقة. وركزت الديانة الوثنية الأصلية التي كانت سائدة آنذاك على ثلاث آلهات، يقال إنها كانت تقطن مكة والمدينة والطائف. وقد خصصت أماكن خاصة لها داخل ساحة مبنى أسود يسمى الكعبة. وعلى مر العصور، كان هذا البناء القديم، الذي بني، حيث قيل أن نيزكًا قد سقط من السماء في هذا الموضع، مكانًا مقدّسًا للعبادة لدى القبائل العربية. كانت القبائل تنظم مرة كل عام شيئا أشبه بالملتقى الذي يأخذ شكلًا احتفاليًا، يحدث فيه تبادل للسلع وتمارس فيه مظاهر الاحتفال. وقد كان هذا المحفل مناسبة جيّدة للقاء الأصدقاء القدامى، وتأسيس علاقات صداقة جديدة بين أفراد القبائل من مختلف الجنسيات. وكان يشمل إقامة مسابقة لاختيار أفضل قصائد العام. وتقول الرواية إن القصائد الفائزة كانت تنقش بالذهب على أوراق من القطن المصري، ثم تعلق على الجدران الخارجية للكعبة ليراها الجميع. كانت الصحراء العربية تبجّل الشعر! وبمرور الوقت، أسفر هذا التقليد عن سبعة (أو عشرة حسب بعض الروايات الأخرى) من أهم قصائد الشعر العربي قبل الإسلام فيما يعرف باسم المعلقات؛ والتي لم تفقد رونقها، حتى اليوم.

3 مدرسة قديمة للطب والحكمة في بلاد فارس أنشئت قبل الإسلام، واستمرت حتى العصر العباسي. كانت مدرسة طب جنديسابور في أوج مجدها حين فتح العرب بلاد فارس سنة (19هـ - 642م) في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وقد التقت فيها حضارة اليونان بحضارات الشرق بفضل العلماء السريان، فجعلوها مركزًا مرموقًا بين مراكز الدولة الإسلامية العلمية. كانت لغة العلم في جنديسابور اليونانية مع اللغات الفارسية والسريانية والعربية. وكان لمدرسة جنديسابور مستشفى يعد من أكبر المشافي في العهد السابق للإسلام بثلاثة قرون. كان للسريان إسهام كبير في جنديسابور وشهرة واسعة، لذلك فقد اعتمد الخلفاء المسلمون عليهم في العلاج والترجمة. وفي عهد كسرى أنوشروان أصبحت جنديسابور أكبر مركز علمي في تلك المنطقة، وفيها امتزجت الثقافات الإغريقية والسريانية والفارسية والمسيحية. المترجم

قد يتساءل القارئ الحديث عن مواطن الجمال في أشهر قصيدة من تلك المعلقات السبع، والتي نسبت إلى أمير الشعراء أمرؤ القيس، حيث يكشف السطر الأول ببساطة عن الديار التي لم تعد موجودة، يليها مشاعر الحسرة والولع التي يعاني منها الشاعر حال مروره بها. وبقليل من الجهد، يمكن للمرء أن يقدر عمق هذه الكلمات وتأثيرها من خلال تصور ما كان يجول في خلد الشاعر، وهو يمرّ بالموقع الذي عاشت فيه حبيبته داخل تلك الصحراء؛ حبيبته التي كانت مدار روحه وأعماقه. والآن، لا يرى شيئًا سوى الرمال القاحلة - لذة فؤاده رحلت إلى مكان آخر، بحثًا عن موئل أفضل حالًا. تباين صارخ بين الحضور والغياب، الوجود والعدم، المعنى والفراغ، والحياة والموت. تشتبك كلمات القصيدة، في مُركب سحري مدهش يمزج الماضي بالحاضر، المرئي بالمتخيل، والفرح بالحزن في آن واحد.

قد يبدو من المدهش أن نذكر الشعر في بداية قصة عن العقل. لكن الشعر في واقع الأمر هو مفتاح فهم السياق العربي قبل الإسلام. تأكيد أولوية الشعر في التطور الاجتماعي والفكري ليس فكرة جديدة، بل أكد عليها قديمًا الفيلسوف العربي الفارابي الذي اتبع التقليد الأرسطي في هذا الأمر. لكن الشعر يتجاوز بكثير مجرد كونه خطوة على سلم الفكر. إنه أصل العقل، لأنه الوسيلة الطبيعية والمباشرة للإبداع والخيال، حيث يستحضر، عبر تحرره من الأشكال الموضعية الأولية، عالمًا غير مرئي، ولكنه جوهري للحدث أو الشيء الموصوف. مثل هذا التجاوز الذي يفعله الشعر عبر الخيال - الانفصال عن الواقع الملموس - هو ضرب من ضروب الحرية. وعند الاقتراب من آفاق المعنى المتحررة من القيود يزدهر العقل الجريء، ويقوم بخطوات استكشافية، ويبدأ في البحث عن النظام والقوانيين التي ينتظم الكون وفقًا لها. في هذه الحركة، وبمرور الوقت، يسعى العقل لأن يصل إلى الفهم والسيطرة على عالمه. وبصرف النظر عما إذا كان بمقدورنا استيعاب تلك العملية أم لا، فإن الخيال هو الشرارة الإبداعية الأولى للعقل. ويمكن للمرء، انطلاقًا من هذا المعنى، أن يرى بسهولة كيف يغدو كلًّا من الشعر والعقل زوجًا طبيعيًا. بدون أحدهما، لا يمكن أن يستمر الآخر في الوجود.

لقد عرّف فيلسوف القرن الحادي عشر ابن سينا (المتوفى 1037) الخيال بأنه وسيط للعقل. وكما سنرى، لم يكن بمفرده هو الذي منحه هذا الاعتماد كمصدر، ثم كوسيط «عقلاني» لإدراك الواقع. ثمة تقليد راسخ من التصوف والخطاب الخيالي - يعبر عنه غالبًا في شكل شعري واستعاري. وعلى نفس القدر من الأهمية، كما سنرى، كان الخيال مصدر الطاقة للتقدم على مختلف الجبهات الفكرية والعلمية - بما في ذلك الفلسفة والقانون والعلوم والرياضيات وعلم الفلك.

ومع ذلك، ثمة جانب آخر لتلك المسألة؛ فبعدما يكون الخيال هو الشرارة الأولى للعقل، قد يتسلط العقل عليه - بل وقد يتحول ضده فينكره، ثم يأتي أنصار العقل فيعتبرونه خالقًا لذاته ومستقلًّا بنفسه - وإنه نقيض الخيال. من هنا يتم استدعاء الخيال بعد ذلك، مع ما يحمله من وعي ذاتي، سواء في الشعر أو في أفكار جديدة وغير تقليدية، بوصفه عدوًّا للمؤسسة العقلانية ونظام الفكر الجدير بالثقة. يتعلق الأمر بكونه؛ أي الخيال، ممثلًا لخطر محتمل يحمل في طياته تهديدًا للنظام والاستقرار. لقد أصبح الشاعر - الملهم، المفكر الحر، مبعوث الضوء من بروميثيوس - منبوذًا؛ ينعزل عن مجتمعه ويضطر للعيش وحيدًا؛ منبوذًا محتقرًا. في بعض الأحيان، يُنظر إليه كشيطان يستأهل السجن والحبس. كم من المرات ينقلب المصنوع على صانعه! يتساءل المرء عما إذا كانت مغامرات العقل (الجامحة) في الإسلام، من انفتاح طال كافة الحدود أو إفراط في الطغيان والاستبداد، هي في النهاية ثمرة هذا الشرر الذي ألقاه الخيال في البداية - والذي سيختفي لاحقًا.

حتى يومنا هذا، يمارس النص المقدس لمحمد السلطة؛ لأنه يعتبر معجزة «لن تتكرر» في النثر الشعري العربي. كانت الكلمة هي الوسيلة المميزة للخيال داخل هذا العالم، وبالتالي لا يمكن التقليل من تأثيرها. رغم ذلك كانت أساسيات اللغة وأصولها متوفرة بالفعل في الثقافة الصحراوية - داخل عقول الناس الذين يتفاعلون بحرية ومع اللغة الجميلة والمشاعر التي يثيرها الشعر. كان الشعراء هم ملوك المعنى. لقد عبروا عن المشاعر والتصورات المفصلية التي شعروا بها بطريقة أخرى مفارقة، وبدقة بالغة، أثاروا الحيرة التي عاشها المهاجر، العاطفة الجياشة تجاه الحبيب، حزن المشيع، وفجيعة المصاب.

في الصحراء، أصبح الشاعر صوتًا لشعبه، فهو الذي يعظم فضائل قبيلته بين القبائل الأخرى، ولا يضاهيه في هذا الدور شيخ أو تاجر. تلك كانت قوة الكلمات! كان ينظر إلى الشعراء ذوي الروح الحرة بهذه الرهبة والاحترام في تلك الأيام. هذا التقديس شبه الفطري، عندما يقترن بعوامل أخرى، يمكن أن يكون مثمرًا على نحو أكثر. وهكذا، عندما أفصحت الشاعرة صاحبة العينين الزرقاوين عن الضرر الذي لحق بها (أو على نحو أدق، بناقتها)، اندلعت واحدة من أطول النزاعات في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام. استمرت حرب بسوس[4] التي استمدت اسمها من المرأة، أربعين عامًا. وعندما أفصح ابن أخيها الغاضب عن رغبته في القتال نيابة عنها، كانت العبارة الأولى التي خاطبها بها: «أيتها المرأة الحرة». وقد عكست هذه الجملة احترامه لها كشاعرة وامرأة كريمة. (هل يتوجب علينا أن نتفاجأ إذن، إذا عرفنا، وفقًا لما تشير إليه الوثائق، أنه كان يوجد أكثر من أربعين شاعرة في الفترة السابقة على الإسلام - في هذا المجتمع الصحراوي، حيث وأد البنات، كان من التقاليد الشائعة فيه؟)

4 هي حرب قامت بين قبيلة تغلب بن وائل وأحلافها ضد بني شيبان وأحلافها من قبيلة بكر بن وائل بعد قتل الجساس بن مرة الشيباني البكري لكليب بن ربيعة التغلبي، ثأرا لخالته البسوس بنت منقذ التميمية، بعد أن قتل كليب ناقة كانت لجارها سعد بن شمس الجرمي، ويذكر الكثير من رواة العرب أن هذه الحرب استمرت أربعين عامًا.

في فترة ما قبل الإسلام - وحتى لبضع سنوات بعد ظهورالإسلام - ظهر ما يعرف باسم شعراء الصعاليك جنبًا إلى جنب الشعراء المشهورين الذين كانوا ينتسبون إلى قبائل معروفة. كانوا مجموعة من الخارجين عن القانون، وهم أقرب في الشبه من روبن هود وعصابته في التراث الإنكليزي: مجموعة من المتمردين المبعدين والمحرومين الذين داهموا قوافل الأثرياء، وتبادلوا الغنائم مع الفقراء. وقد عرفوا بجرأتهم وشعرهم الذي احتفى بالحركة الاجتماعية الفوضوية.

لقد ازدهر هذان النوعان من الشعر داخل السياق العربي قبل الإسلام: شعراء المعلقات من ناحية، الذين حلقوا بروحهم في فضاء الفردية والرومانسية إلى عوالم لم يسبر أغوارها إنسان من قبل؛ والمتمردون الاجتماعيون الذين تحدّوا طبقية المجتمع والسلطة القائمة، وحاولوا تحقيق العدالة بطريقتهم الخاصة من ناحية أخرى. لقد مثّلا معًا الشخصية الفريدة للشاعر الصحراوي: وجهين؛ أحدهما مكمل للنظام الاجتماعي وآخر معارض له. يسكن شاعر الصحراء على الحدود ويسكن في عالمين؛ كيان هجين ينتمي إلى قبيلته المتماسكة وإلى الفضاء الشاسع الذي لا حدود له خارج هذه المجموعة. إنه سيد لغة شعبه، وسيط تتحول من خلاله اللغة بطريقة سحرية إلى نسيج فني من الكلمات، يستجمع المعاني التي يبدو أنها تنبثق من تحت الرمال ومن أعلى أعالي السماء.

إنّ القوة المثيرة للشعر في الثقافة الصحراوية والتأثير الذي أحدثه من العوامل الأساسية لفهم المناخ الثقافي للعصر الذي أعلن فيه محمد عن رسالته الإلهية، تمثل اللغة بلا شك الشكل المميز للتعبير، وكان الشعراء بلا شك أفضل الممارسين لهذا الفن. ولم يكن الشعر متساويًا في قدره بالتأكيد، بل يتوقف على ما يحتويه من صور فاتنة، وما يتركه من آثار مادية وعقلية. ولكن على الرغم من كل ذلك، على الرغم من قوة الخيال الشعري، الذي أنشأ العقل الصحراوي بقوة الكلمة، وخلق إطارًا للفكر الإنساني وللعمل، وأعد الأسس الثقافية لما يمكن أن يتبعه، إلا أنه لا يوجد شيء يمكن مقارنته مع الاضطرابات التي وقعت في أعقاب رسالة الإسلام التي حملها القرآن. ترددت أصداء الرسالة المقدسة لسنوات وعقود وقرون. لقد تجلّى ذلك في شكل قيادة لغوية غير مسبوقة أو معهودة حتى الآن. وبدا وكأن الكلمات والمفاهيم المقدسة تأتي من عوالم مجهولة لا نظير لها في عالمنا. رفع القرآن الروح إلى مستويات لا مثيل لها: وُلد العقل في الإسلام. إذا كانت القصيدة الغنائية السابقة قد امتلكت مقاليد الجسد والروح، فقد تضاءلت بالمقارنة مع القصيدة المتعالية والحيوية للكون التي جاء بها محمد.

مع مرور الوقت، فإن الثورة الروحية التي جاءت بها الرسالة، والتي غمرت الفكر بروح جديدة، ستستفيد من موارد أخرى؛ فقد تم الانفتاح على العلوم اليونانية والفارسية والهندية مع تنامي القوة السياسية

للعالم الإسلامي، وقد احتلّوا مكانهم داخل الحضارة الإسلامية؛ لأن شرارة العقل - الرحلة الفكرية للنظام عبر تحليل الظواهر والنصوص - قد وجدت لها موطئ قدم داخل هذا العالم.

في فجر الإسلام، بدا للحظة كما لو أنّ الأبواب كانت مفتوحة أمام حركة الحرية الفكرية. قبل كل شيء، كان هذا الأمر موجودًا في عالم الدين الجديد. وفي الوقت نفسه، كان متجذّرًا في الثقافة الصحراوية - ثقافة الشاعر المتجول الحر التي جسدت الإبداع والعزة واستقلال الفكر وتقدير الذات. ولكن - ومنذ البداية - تأكد أن هذا السبب هو ذاته الذي دفع الدين إلى عدم التسامح مع الحرية الفردية. بمرور الوقت، سوف يزداد الدين صلابة ويمنح مساحة أقل وأقل لحرية التفكير الإبداعي. في النهاية، سيتم طرد الأخير من العالم الديني تمامًا؛ ومن الآن فصاعدًا، سوف يصبح الاستثمار موجّهًا في حركة فلسفية على أطراف المجتمع، وغير قادرة على ممارسة أي تأثير على المركز الاجتماعي.

فكرة الله المروعة

يناقش الباحثون مسألة ما إذا كانت القبيلة التي ينتمي إليها أمير الشمال العربي امرؤ قيس (قبيلة كندة) تدين بالمسيحية، أم إنها كانت وثنية. ثمة حكاية متداولة عن الرسول الملكي الذي جاء إلى امرئ القيس محمّلًا بأخبارٍ عاجلة تفيد بأن والده قد قُتل على يد رجل من قبيلة العدو. يجلس الشاعر الأمير الذي يحتسي الخمر مع رفاقه، يستقبل الرسول بصحبة زوجته الفاتنة قائلاً له: "اليوم نشرب، وغدًا سنرى كيف نعالج الأمر". وفي اليوم التالي، ناشد البيزنطيين المساعدة في الانتقام لمقتل والده.. كانت الخطوة منطقية؛ لأن جذور قبيلته تعود إلى الإمبراطورية البيزنطية. (عندما توفي امرؤ القيس، تم دفنه في أنطاليا [تركيا]، التي تقع داخل الأراضي البيزنطية أيضًا).

كانت العادات البيزنطية في التجوال الحرّ والتأمل في الفضاء - حيث يتجول النساك والرهبان أو يسكنون في الأديرة المتناثرة في جميع أنحاء الصحراء - قد انتقلت إلى الشاعر المخضرم. من المؤكد أنه أتيحت له فرص لا حصر لها لمعرفة شيء عن الإيمان المسيحي. ليس هناك شكّ في أنه كان على دراية باليهودية؛ لأن القبائل اليهودية كانت تنتمي إلى الجزيرة العربية مثلها مثل القبائل الوثنية. "من أجل كلمة الله" التي ظهرت في قصائده، فإن الله - قبل مائة عام من ظهور نبي الإسلام - قد يشير إلى وعي أكثر عمومية، حتى لو كان غامضًا ومتناقضًا مع إله الكتاب المقدس.

في الواقع، كما رأينا سابقًا، كانت الجزيرة العربية مليئة بالتطلعات الدينية، المستوحاة جزئيًا من أفكار مصرية وفارسية وهندية، وأيضًا من شعرائها ونساكها المتجولين، ولكن الأهم من ذلك كله، ربما ما أخبرتنا

عنه القصص بخصوص الرهبان ورجال الدين الرحالة المنتمون إلى الطوائف المسيحية الكبرى، الذين اختلفوا حول طبيعة العلاقة بين الله والمسيح، وارتبطوا بالمدارس الشبيهة بهم في الإسكندرية وأنطاكيا. من المثير للاهتمام في روايتنا أن الجماعات المنشقة عن المسيحية الرسمية قد ذهبت إلى القول بأن المسيح لم يصلب على الإطلاق؛ وقد أثاروا التساؤل عما إذا كان المسيح هو ابن الله، أم من أبنائه، أم ولد بمعجزة من امرأة.

في القرن الرابع الميلادي، عقد الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول، المجلس الأول لتسوية تلك المسألة وغيرها من المسائل. وقد انتهى المجلس بإصدار مرسوم يرفض ما ذهبت إليه مدرسة الإسكندرية المبكرة من إنكار ألوهية المسيح، لكن حتى هذا الإجراء لم ينجح في حلّ الخلاف المستمر بين المسيحيين - كما لم تنجح المجالس المختلفة التي تلت ذلك في تحقيقه أيضًا. وبينما كان الرهبان يجتازون صحراء الجزيرة العربية، سواء لممارسة معتقداتهم غير التقليدية أو حمل رسائل من أسقف إلى آخر، كان من المتوقع أن تنتشر تلك الأفكار المختلفة عن الله شفهيًا بسرعة كبيرة، من شخص إلى آخر، ومن مكان إلى آخر - كما حدثتنا الأخبار عن تلك الأيام.

وعلى مرّ السنين التالية، حدثتنا روايات أخرى عن أفكار ظهرت هنا وهناك دارت حول طبيعة الله وعلاقته بالعالم. لقد جاءت تلك الأفكار من رهبان ونساك ورجال دين قاموا بجمع المناقشات التي تم تبادلها في العديد من المجامع الكنسيّة حول "المواعظ" التي يتوجب قبولها، وتلك التي يتوجب رفضها، وكذلك أفكار مستمدة من وجهة نظر الحاخامات الأصليين والعرب من اليهود حول الطبيعة المتسامية والمنزهة لله، فعل الخلق، قوته الهائلة وسلطته السيادية على جميع المخلوقات، أنبيائه، وعنايته المفترضة لكي يستمر العالم في الوجود. والأكثر من ذلك، أن الأديان الوثنية، الوطنية والأصلية التي اعتمدت من الدول والثقافات القريبة، كانت تمتلك رؤيتها الخاصة. وبحلول منتصف القرن السابع الميلادي، كانت الجزيرة العربية جاهزة للرسالة الإلهية الخاصة بها. في النهاية، ألقيت هذه الرسالة في وجه الحكم البيزنطي والساساني، وقلبت الأوضاع على المعتقدات السائدة، واستبدلت كتاب آخر بها - القرآن الكريم - رحب به عرب الصحراء، باعتباره أكثر متانة وشمولية، وقبل كل شيء، مناسب للحياة ولطبيعتهم التي يعرفونها.

ليس من أهدافنا في هذ العمل شرح المسار الدقيق الذي اتبعته رسالة الإسلام أثناء انتشارها بين العرب الصحراويين المنقسمين والمشتتين في تلك الأيام الأولى، بل سنكتفي بمجرد وصف (أقل بكثير من شرح) هذا السياق؛ كما لا يمكننا مناقشة التأثير الذي أحدثته أو التعليق عليه بنوع من التفصيل. ومع ذلك، قد يفترض المرء توافر ذهنية - لسبب أو أكثر من الأسباب التاريخية والنفسية المذكورة أعلاه - والتي منحتهم تقديرًا

"غير اعتيادي" للأشياء والأحداث في العالم من حولهم. في هذا السياق، يجب أن يكون هناك جانبان من الرسالة قد مارسا قوة لا يمكن إنكارها: حقيقة أن النبي كان عربياً أصلاً، وليس من أصل عرقي مختلف، وحقيقة أنه جاء باللغة العربية، وهي لغة مألوفة تُعطى الآن شكلًا مذهلاً. النقطة الأولى قد تحمل وزنًا أكبر في شرح البعد السياسي لانتشار الرسالة والاضطرابات الجغرافية السياسية الجذرية التي تسببت فيها. أما النقطة الثانية، فوزنها الحقيقي يتضح أثناء شرح تأثيرها الفكري اللاحق والمتنامي للثورة العقلية التي يركز كتابنا عليها.

وقد استطاع النص المقدس عن طريق اللغة، التي لا تزال تمارس تأثيرها على القراء حتى يومنا هذا، الاستحواذ مباشرة على العناصر المتعالية التي كانت مصدر إلهام للشعراء والوثنيين على حد سواء. لقد قدم النص إطارًا محددًا لفهم علاقة الله بالعالم ككلمته المطلقة، عبر استحضاره فكرة الإله مطلق القوة، التي سبق التأكيد عليها في التوارة والإنجيل. لكن على عكس الكتب المقدسة السابقة، التي يُعتقد قابلية ترجمتها من لغة إلى أخرى دون أن تفقد معناها، فإن تميز النص المقدس الإسلامي يبدو مرتبطًا باللغة التي جاء بها. في ذلك الوقت، كما هو الحال اليوم، كان يُعتقد أن هناك إمكانية لنقل محتوى النصوص (الدينية) الأخرى بسهولة إلى ألسنة غير تلك التي كتبت بها. في المقابل، كان ثمة اعتقاد بأن القرآن كتاب فريد من نوعه، حيث قد لا يقدره المرء تمامًا دون تعلم اللغة وفهمها مباشرةً، سواء عن طريق السماع أو التلاوة. كان محتواها ومعانيها مرتبطين ارتباطًا وثيقًا من الناحية اللغوية، حيث يشكلان معًا وحدة واحدة!

والآن، فإن العرب الذين كان يتملكهم الإعجاب بما عرفوه من معتقدات عبرية ومسيحية، قد انخرطوا في مناقشات خاصة بهم - لم تعد معرفتهم بالله وعن عالم الأنبياء القدامى قادمة عن طريق اللغات التي لا يتحدثونها أو النصوص التي لم يتمكنوا من قراءتها (على سبيل المثال، الآرامية، السريانية، البهلوية، أو اليونانية). الآن لديهم نص إلهي يقص عليهم قصص الأنبياء السابقين، ويتناول أسئلة وجودية بلغتهم الخاصة؛ الآن يمكنهم مواصلة التأملات اللاهوتية دون عائق من شعور بالمسافة أو الغرابة.

لقد جاء الدين الجديد مع محمد، مع رجل ينتمي إليهم، وغير قادم من أراضٍ أجنبية يحمل منها رسالته. كان نسب محمد من أصول عربية خالصة، من الأمور الدالة وقتئذ. من المؤكد أن المتشككين عبروا عن شكوكهم في سلطته، وادعوا أن الآيات والقصص الواردة في القرآن قد تلقاها من راهب متنقل خلال رحلاته إلى الأراضي السورية الكبرى. (عمل محمد لسنوات عديدة لصالح المرأة التي أصبحت فيما بعد زوجته، وقد قام بقيادة بعض القوافل التجارية في جميع أنحاء الجزيرة العربية). وادعى آخرون أنه قد تعرف على

العقيدة الإبراهيمية عن طريق شقيق زوجته - الذي قيل إنه يهودي. وقد أنكر القرآن نفسه، ودحض تلك المزاعم وغيرها (بما في ذلك الاتهام بأن النبي كان مجنونًا).

على الرغم من تلك الهالة من الشك، فإن الآيات التي جاء بها محمد حول طبيعة الله، غدت الآن موضعًا للتفكير والمناقشة على نحو جدي بين أصحابه وأتباعه. أشعل الشعر الإلهي خيالًا مغمورًا بالفعل بسر العالم، وعلامات القدرة الإلهية. لقد حث القرآن على التأمل في السّماوات، السماء السابعة المرصعة بالنجوم والكواكب، وكل منها يتبع مسارًا محدّدًا. فكر في كيفية تماسكهم معًا - كما لو كان هناك عمد لا مرئية تحملهم. كيف يغض أولئك المنكرون للألوهية الطرف عن حقيقة أن الأرض والسماوات كانتا رتقًا! لقد فتقناهما وجعلنا الماء مصدرًا لكل شيء حي؟!. فكر في كيفية تكوين الإنسان، وكيف نشأت الحياة من طين موحل أولي، وكيف تنبعث المياه من الصخر، وكيف يكون النبات حيًّا، رغم أنه يبدو ميتًا. فكر في أنه كما بدأ، سينتهي الأمر أيضًا، وفكر أيضًا في كيف يمكن أن ينفخ الله دائمًا الحياة في الخليقة. لقد نسج القرآن الصور بطريقة مدهشة في التصورات الحسية العادية. سبع سماوات؟ السماء والأرض كانتا "رتقًا" ففتقناهما؟ ماء الحياة يتدفق من الأرض الميتة؟

كان على سكان الصحراء الآن النظر، وكنتيجة للطبيعة المفتوحة التي تميز بيئتهم، في كل ما رأوه كعلامات أو مفاتيح لفك شفرات السر الذي يقف وراءهم - نظام محكم يجمع كل الأشياء معًا. هناك آيات أخرى أيضًا عملت على خلخلة القناعات الراسخة حول الظواهر الطبيعية، والتي كان ينظر إليها بوصفها طبيعية: "وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ". لقد تخطت الفكرة الحكمة الدارجة، وهزت جدارة الثقة في الإدراك الحسّي. وهذا بدوره، يعني ضمنًا الحاجة إلى تغيير المعتقدات الموروثة الأخرى وطرق النظر إلى العالم.

بالتوازي مع تجربة شائعة في الصحراء لمخيمات تجتاحها الرياح، فلا يبقى منها سوى بعض العهن المنفوش، يشبه القرآن الجبال الصلبة، حال يوم القيامة، تشبيهًا مماثلًا، حيث لن يبقى منها شيئًا سوى بعض الكثبان الرملية التي تزروها الرياح. في الواقع، ثمة حركة مستمرة للنجوم والكواكب أيضًا؛ ويبدو أنها حركة تتم داخل كون سرمدي لا نهاية له. إنهم يتبعون بعضهم بعضًا، مثلما يتبع الرجال خطوط السير على الرمال الصحراوية. لكن كيف يمكن أن يجري كل هذا؟ وإلى ماذا يشير؟ كانت آيات القرآن تغذّي الخيال، وتثير الأسئلة وتلقي الضوء على ما يربط بين النهائي والمطلق، العابر والأبدي، والمظهر والواقع، حيث يتجاوز المشهد الكوني اللغز الذي يقدمه. لقد شعر أهل الصحراء من العرب - داخل أعماقهم، وتحت ما يتبدى على

السطح - أن صورة السلوك هذه تتوافق مع ما عرفوا أنه على صواب: التصرف العادل والصالح للآخرين، في انسجام مع الكيفية التي يوجد عليها الكون.

كانت لغة القرآن مبهرة، تتخذ شكلًا شعريًا رائعًا، لا يضاهيه كتاب من قبله في هذا الصدد؛ بدا أنه يأسر آذانا منسجمة في الأصل مع سحر الشعر. في الوقت ذاته، كانت تمتلك نطاقًا كليًا وتقتحم مستويات غير مسبوقة. فبدلاً من الكشف عن المخاوف الداخلية الفردية، العواطف، المشاعر، تدفقت إلى العالم وتخللت في مسارات تصور المتسامي والجليل. تتأرجح الآيات بدقة البندول، وتتنقل بين عوالم الميتافيزيقيا والعوالم النفسية والأثيرية والحياة اليومية. يمكن للمرء أن يتخيل كيف أن الكلمات ذات الإيقاع المتناغم قد فتحت عالمًا بأسره، وكشفت عن أفق لا حصر له من التأمل والتوقع مع إشارات عديدة عن بنية الكون. لقد غدا لسكان الصحراء الآن كنز ثمين، ينطق بلغتهم الأم، ويفصح عن معاني الألوهية، ويحدثهم عن أنفسهم - يتحدى كلًّا من الفكر والخيال، ويستدعي المزيد من التأمل والتفسير.

كان ثمة الكثير من الأمور التي تستوجب النظر فيها. ولم تكن أوثان الكعبة، بأي حال من الأحوال، لديها ما تقدمه على مستوى الإلهام والخيال أو الفكر. لا شيء يتعلق بها يمكن أن يقال أو يفكر فيه ولم يتجاوز وجودها مجرد الزينة أو دورها في الطقوس. بالنسبة إلى البعض، كانت مجرد وسيط، أو ملائكة - ولكن لمن أو لماذا؟ إنها لا تفصح عن أي شيءٍ يخصها. على النقيض من ذلك، حثّت الرسالة المحمدية الناس على تحويل أفكارهم إلى ما يتجاوز حدود الكعبة والمكانة والعرق: الوجود الاستثنائي، الذي ربما تنامى إلى أسماعهم من اليهود أو المسيحيين، وهم يتناقشون ويتجادلون حول طبيعة القوة الإلهية التي تتحكم في الكون. هذه القوة أصبحت الآن متجسدة على الأرض عن طريق النبي محمد.

لم تكن النقاشات حول طبيعة الإله سائدة لدى العرب، بل كانت غريبة عنهم؛ لأنها على ما يبدو لم تكن تهمهم. الآن، لم يعودوا مجرد مستمعين أو في موقع المشاهدين لخطاب لا يمكن سبر غوره حول أسرار الكون - كيف تكون السموات مرفوعة من غير عمد دون أن تقع على الأرض؟، كيف يمكن للمستقبل الغامض أن ينبثق من الماضي الثابت؟، وكيف يحدث الانتقال من الحياة إلى الموت؟

على الرغم من جدة المناقشات التي استدعتها تلك الأسئلة، إلا أن العرب لم يشعروا بالغربة تجاه الخطاب الذي أثار هذه الألغاز والظواهر المتشعبة للطبيعة، في إطار من النظام المترابط. لم يأت هذا الخطاب من شخص غير عادي، كان أصله في حد ذاته ملغزًا، كما المسيح، ولكن من رجل عادي، ينتمي إليهم - شخص لم يدع أنه أكثر من مجرد رسول، وقدم لهم الوسيلة التي عبرت عن حقيقة الوجود، وتم كشف أسرار الكون من خلالها. وبعبارة أخرى، أصبح لدى الجميع الآن الوسائل، ليصبحوا مشاركين في التأمل

والتدبر. كانت موضوعات النقاش قد طرحت على الطاولة، وكان العرب يمتلكون أدوات اللغة التي تمكنهم من الفهم والمشاركة أيضًا. وربما كان ذلك، أكثر من أي شيء آخر، هو ما أفضى إلى ولادة العقل في العالم الناطق بالعربية.

أصبح من الطبيعي، الآن، التفكير في طبيعة الله من خلال الاعتماد على الرسالة الموجهة إليهم مباشرة. كانت الرسالة محملة بالأفكار والتوجيهات والنصائح والعبر والتحذيرات - وقبل كل شيء، محملة بأوامر تدعو إلى التأمل في التفكير في العالم واستخدام العقل، لتأكيد تميز الإنسان وطبيعته المعجزة. وقد نجح محمد، بدخوله قدس الأقداس وتحطيمه للأوثان، في ترسيخ الشعور لدى معاصريه بأن آلهة الكعبة عاجزة لا تمتلك القدرة على حماية نفسها، لا تنفع ولا تضر. كيف يمكن للتماثيل التي يمكن تحطيمها (أو ربما أكلها!) أن تمارس هيمنتها على الإنسان؟ حتى لو كان يُعتقد أنها أيقونات للإله أو وسائط أرضية للسماء، فما مقدار القوة يا تُرى التي يمكن أن تمتلكها في الواقع؟ وبالمثل، كيف يمكن عبادة القمر، الشمس، أو النجوم وهم يدورون في مدارات ثابتة محددة؟ ألم يكن هذا النظام - كما أكد القرآن - هو السمة السائدة في العالم؟ وهو الذي مكن البشر من التعرف على الطريقة التي يستطيعون من خلالها إدارة حياتهم، تغيير الفصول، التناوب بين الليل والنهار. إنه الإطار الثابت للعمل الذي تربى فيه الأغنام وتعتمده المراعي آنذاك. هل من المنطقي أن تتوجه العبادة إلى مجرد أشياء تقوم بدور الوسطاء في مثل هذا الأمر - أو، حتى أن تتوجه إلى النظام نفسه - الآن بعد أن تم توجيههم إلى النظر في أن هناك شيئًا ما يقف وراء هذا النظام، يتحكم فيه ويحافظ عليه، سيكون التساؤل التالي ماذا عساه أن يكون هذا الشيء؟ وما هي صفاته وطبيعته؟

تناولت الآيات القرآنية - في مجملها وبالتفصيل - مجموعة من المخاوف النفسية والوجودية: التوق إلى حياة دائمة، ومستقبل يملؤه الراحة والنعيم؛ الخوف الغريزي من العقاب أو العقوبة نتيجة ارتكاب ذنب؛ والوعد بالثواب حال فعل الصواب. ومع ذلك، وقبل هذا كله، تحدثت الآيات وأثارت الخيال والعقل. من ناحية، تم حث الناس على ضرورة تخليص أنفسهم من القيود المترسخة في أذهانهم من أجل أن يتحرروا، وفي الوقت ذاته تم تقديم فكرة جديدة رهيبة عن الإله المتعالي المنزه. من ناحية أخرى، تضمن الخطاب ما يفيد بأن أصغر الأشياء على الأرض قد تكون مفاتيح التشغيل للسر الكوني الشامل للخلق والنظام. والخلاصة أن القرآن قد ركز على كل ما يدعو الناس، لأن يؤمنوا بحقيقة وجود الإله.

عملت هذه الآيات التي يفيض القرآن بها، على خلخلة المعارف القائمة وقامت بتحديها. يمكن للمرء أن يتخيل الأمر كما لو كان سكان الخيام الصحراوية الذين يعمرون الأرض، قد تم جلبهم فجأة، على متن سفينة فضائية ظهرت من العدم، ثم يتم نقلهم بعيدًا إلى أقاصي السماء. ومن هناك، ينظرون إلى العالم الذي اعتقدوا

أنهم يعرفونه، لكنهم لم يتخيلوا أبدًا أن يكون بمثل هذا المشهد الذي يرونه بأعينهم الآن. لقد غمرتهم الرؤية، واستغرقتهم على نحو كامل، فلامسوا عنان السماء، يتملكهم شعور بالنشوة المفرطة.

ولكن على الرغم من مشاعر الرهبة والذهول التي تسربت إلى النفوس أمام إعجاز الكون وأمام خالقه العظيم، كان ثمة تساؤل مفاده: هل القرآن يفسر العلاقة بين البشر على نحو كامل؟ هل ثمة آيات تكشف عن طبيعة العالم الذي نعيش فيه بما فيه من مخلوقات؟ بمعنى، هل يمكن لهذه الكلمات أن تقف وراء حاجتنا للإجابة عن «الأسئلة الكبيرة»؟ إذا كان القرآن يحفز الخيال ويطالبنا بالتحرر من القيود الموجودة مسبقًا لرؤية العالم على نحو ما، ألا يدعونا أيضًا إلى التخلص من قيودنا عندما نبدأ في التفكير في طبيعة الله، وما طبيعة علاقتنا به؟ ألا يدعونا إلى، ليس فقط تخيله، ولكن أيضًا التفكير فيه بحرية، إلى ماذا قد يفضي ذلك إذن؟ في سياق هذه التكهنات، ووسط الاضطرابات السياسية الكبرى التي بدأت مع وفاة النبي، تم قطع الخطوات الأولى في مسار الحركة التي تتجه صوب حرية الفكر.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2020

جميع الحقوق محفوظة © 2020